قراءة تحليلية لظاهرة العنف اللّغوي اللّفظي.

Analytical reading of the violence of language.

أ. سمير توبة/ **Samir Touba**

طالب دكتوراه، جامعة البليدة 2،

Toubasamir73@gmail.Com

ا.د. جمال معتوق/ **Djamel Matouk**

أستاذ التعليم العالي، جامعة البليدة 2،

matouk59@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:2019/11/10 تاريخ القبول: 2019/12/23. تاريخ النشر 2020/01/01

ملخص نسعى من خلال هذا المقال إلى دراسة أحد أهم المواضيع السّوسيولوجية، ويتمثل في ظاهرة العنف اللغوي اللفظي، التي تشكل إحدى القضايا الهامة التّي تطرح على المهتمين بدراسة الجريمة والانحراف بالتحديد، بغية فهم مختلف السّلوكات العدوانية المنتشرة في كثير من المجتمعات، والتي تعود نتائجها سلبًا على البناء الاجتماعي نتيجة ما تحدثه من تصدع في مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية .

الكلمات المفتاحية: العنف اللغوي، العنف، العنف اللفظي، التنشئة، التجريح، العنف الرمزي.

Abstract: In this article we seek to study and analyze one of the most important psychological topics of the phenomenon of verbal and linguistic violence, which is one of the most important violence phenomena question that is raised to those interested in the study of crime and delinquency in order to understand and explain many of the aggressive behavior that spread in many societies and practiced by many of individuals, where the results are negatively impacting on social construction through the cracking in various institutions of socialization.

Key– words : Violence of language, violence, socialization, stigmatization, symbolic violence.

1 – مقدمة :

تعد ظاهرة العنف من الظواهر المرضية على حدّ تعبير العالم الفرنسي"إميل دوركايم" (Pathologie sociale) (Emile Durkheim)، وذلك لما لها من انعكاسات وخيمة على البناء الاجتماعي وتوازنه، ولا يمكن الحديث عن العنف بصيغة المفرد، إذ هو ظاهرة تأخذ أشكالاً مختلفة، فمنها ما هو مادي؛ ومنها ما هو معنوي.

وسوف نتطرق في هذا البحث إلى ظاهرة العنف اللغوي اللفظي، تلك الظّاهرة التّي لم تنل في نظرنا حظها من الدّراسة.كما سنعمل على إظهار علاقتها بكل من عملية التّنشئة الاجتماعية،تلك العملية التي بفضلها يتعلم الأفراد ويكتسبون سلوكاتهم، السّوية منها وغير السّوية؛ والوصم (التّجريح)، الذي ما هو في نظرنا إلا شكل من أشكال العنف اللغوي اللفظي.

1– التّنشئة الاجتماعية والعنف اللغوي اللفظي :

تعد عملية التّنشئة الاجتماعية من العمليات الأساسية في بناء الفرد الاجتماعي، وذلك لما تقوم به من أدوار في مختلف المراحل الحاسمة من حياته.

ولما كانت التّنشئة الاجتماعية هي العملية المسؤولة عن سلوكات الأفراد المستقبلية كما بيّنته العديد من الدّراسات في علم النّفس الاجتماعي وعلم الاجتماع، فقد ارتأينا العمل على تفكيك العلاقة العضوية الموجودة بين كل من التّنشئة والعنف بمستوياته وأشكاله المختلفة.

وبداية نعرض بعض التّعاريف نوضح من خلالها عملية التّنشئة الاجتماعية، ثم نحاول ربطها بفعل العنف والاعتداء، مع التركيز في هذا العمل على العنف اللغوي واللفظي على وجه الخصوص.

1–1 : في معنى التنشئة الاجتماعية :

نشير في البداية إلى أن **التنشئة الاجتماعية** ظاهرة الاجتماعية بامتياز قد تتعدد تعاريفها، ومن الصعوبة الإحاطة بها، الأمر الذي تنجرّ عنه مشكلات منهجية وإبستمولوجية (Epistemology) في ضبطها، وعليه فلن نطيل كثيرا في تقديم مختلف الدلالات المقترنة بهذه العملية، والأهم من ذلك في تصوّرنا هو إظهار العلاقة العضوية بينها وبين العنف اللغوي واللفظي، بوصفه سلوكا يكتسبه الفرد من خلال احتكاكه بالآخرين وتفاعله معهم في الأوساط الاجتماعية المختلفة، التّي يتواجد فيها، سواء الرّسمية منها أو غير الرّسمية، ونذكر منها: الأسرة، المدرسة، أماكن العبادة، جماعة الرفاق، وسائل الإعلام والاتصال، وغيرها.

تعرف التّنشئة الاجتماعية على أنها «العملية التي من خلالها يتم دمج الفرد في المجتمع، وفي ذات الوقت دمج ثقافة الفرد في المجتمع».[1] ، وهي بالتالي تهدف إلى نقل الفرد من العالم البيولوجي المادي المحض إلى العالم الاجتماعي الثّقافي، من خلال طبعه وتزويده بالمقومات الضّرورية التي تسمح له بالاندماج الاجتماعي، والعيش وسط باقي أفراد مجتمعه، فهي – أي التنشئة الاجتماعية– مسؤولة على سلوكاته وتصرّفاته المستقبلية، وهذا ما حاولت العديد من النّظريات تفسيره، كنظرية التّعلم الاجتماعي، وغيرها.

وإنّ السّلوك الاجتماعي للفرد إذًا، هو سلوك يكتسبه عبر المؤسسات التّنشئوية، ولا يكون سلوكاً سويًا بالضرورة، ويبقى السلوك مهما كان نتاج التّنشئة الاجتماعية التي تلقّاها الفرد، فإذا أردنا مثلاً الوقوف على المصادر التّي تغذى منها الفرد، في اكتسابه السلوك "غير السويّ"، والمتمثل في العنف الماديّ منه والمعنويّ، ونخص بالذكر في سياق هذا البحث، العنف اللغوي اللفظي الذّي سوف نتوقف عنده بالتحليل والوصف، سنجد أنّ الفرد قد اكتسبه من خلال التّنشئة والتفاعل مع باقي أفراد المجتمع، وهذا ما تؤكّده النّظريات الاجتماعية المفسرة للعنف والجريمة، يمكن أن نذكر في هذا المجال نظرية المخالطة الفارقة للعالم "**إدوين سوزرلاند**" (Edwin

(Sutherland)، وكذلك نظرية التّقليد والمحاكاة للعالم الفرنسي "**جبرائيل تارد**" (Gabriel Tarde).

وقد جاء في تعريف التّنشئة الاجتماعية كذلك على أنها « العملية التّي يصبح فيها الفرد واعيًا ومستجيبًا للمؤثرات الاجتماعية، وما تشتمل عليه هذه المؤثرات من ضغوط، وما تفرضه من واجبات على الفرد، حتى يتعلم كيف يعيش مع الآخرين، ويسلك معهم سلوكه في الحياة».[2]

ويُشير هذا التعريف بوضوح إلى أنّ الهدف من وراء عملية التّنشئة الاجتماعية هو تربية الطفل وتلقينه السلوكات المختلفة، التي تمكّنه من التكيّف مع الآخرين داخل المجتمع، وهي التربية التي من شأنها أن تدخل في القاموس البيولوجي للفرد العديد من الدّلالات والأفكار والمواقف، التّي سوف يلجأ إليها مستقبلاً عند دخوله في علاقات مع الآخرين.

وحسب "الألوسي" فإنّ التنشئة الاجتماعية هي كذلك «التّأثير الذّي يقع على الطّفل من قبل بيئته الاجتماعية، قصد تحويله من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي، ولإعداده للاندماج في الثّقافة التّي يعيش فيها، وهي كذلك الأساليب التّي يتعلمها الفرد ليشبع حاجاته بطرق يرضى عليها المجتمع، والتّي تجعل الفرد يتصرف وفقا لقوانين المجتمع، كما يشارك في الاتجاهات العقلية والقيم السائدة في المجتمع».[3] ، ويحيل هذا التعريف إلى فكرة أخرى مفادها أنّ التّنشئة الاجتماعية هي العملية التّي تزرع في الفرد منذ مرحلة الطّفولة القيم والعادات والتّقاليد، فينشأ عليها، ومن هذه الناحية تعدّ بشكل من الأشكال مسؤولة عمّا يكتسبه من سلوكات ومواقف، ومنها سلوكات العنف بصورها المختلفة، ولعلّ أهمّها وأقوى أثرا على الفرد العنف اللغوي اللفظي.

وبعد تحديد مفهوم التّنشئة الاجتماعية، ننتقل إلى المتغير الثّقيل في موضوع عملنا هذا، والمتمثل في العنف اللغوي اللفظي، والذّي يعد شكلاً من أشكال العنف الأكثر

جريانا في الأوساط الاجتماعية، ولا يقتصر على فئة اجتماعية دون أخرى، كما أنّه لا يخص جنسًا دون الآخر، بل يمارسه كلّ من الجنسين، ولكن بشكل متباين.

وقبل الشروع في تحليل مفاهيمه، نقف بشكل جد سريع، لتعريف العنف، والإشارة إلى بعض أشكاله، وهذا خدمة للمنهجية التي ارتأيناه لهذا البحث.

1-2 : في معنى العنف :

تعدّدت تعاريف العنف، بتعدّد زوايا النظر إليه في إطار المدارس التي أسّست لمفهومه واختلاف أصحابها في انتماءاتهم الإيديولوجية، وفي هذا الباب سوف نكتفي بذكر بعض التّعاريف المتعلقة بهذه الظاهرة، وفق الأهداف المسطرة في هذا العمل. ويعرّفه ابن منظور في "لسان العرب" تعريفا لغويا في قوله «العنف والخرق بالأمر، وقلة الرفق به، وهو ضد الرفق، عُنفَ به، وعليه يعنفُ وعنافة وأعنّفَهُ تعنيفاً وهو عنيفٌ إذا لم يكن رفيقاً في أمره، اعتنفَ الأمر، أخذه بعنف» .[4] ويضيف في قول آخر:« هو بضم الشدة والمشقة ، وكل ما في الرفق من الخير ، ففي العنف من الشر مثله والعُنفُ والعَنيفُ و العَنيفُ المتعنفُ».[5]

ويُعرّف العنف من المنظور الفلسفي على أنّه «مضاد للرفق، ومرادف للشدة والقسوة، والعنيف المتصف بالعنف، فكل فعل شديد يخالف طبيعة الشيء، ويكون مفروضاً عليه من خارج، فهو بمعنى مَا فعل عنيف»[6] ، بينما يعرّفه الدّارسون في علم الاجتماع، على أنّه «استخدام الضبط أو القوة استخدامًا غير مشروع، أو غير مطابق للقانون، من شأنه التّأثير على إرادة فردٍ ما».[7]

ويتبيّن لنا بعد هذا، أنّ جلّ التعاريف تقدّم العنف بوصفه سلوكا سلبيا ينطوي على معاداة للآخر، ويهدف إلى إخضاعه وقهره، وذلك باللجوء إلى القوة المادية أو المعنوية التّي يتمتع بها الشّخص العنيف.

كما أنّ السّلوك العنيف يتعارض مع ما نصّت عليه كل الدّيانات السّماوية، والقوانين الوضعية المنظمة للحياة الاجتماعية. ونظراً لكون العنف سلوكا معاديا

للإنسانية والأخوة، فقد انصبّ جهود العديد من العلماء والباحثين في شتى ميادين المعرفة على فك شفرته –لغزه– والوقوف على دوافعه ومنابعه، وكذا نتائجه.

يأخذ العنف أشكالا عدّة، وما نريد التركيز عليه وفق مقتضيات هذا البحث هو العنف اللغوي واللفظي، الذّي يعدّ من الصور المعينة لهذه الظاهرة، والتّي وصفها بعض الباحثين بالعنف النّفسي أو الرمزي، وهي تتخذ صورا مختلفة، إما عن طريق الكتابة –الكتابات العنيفة– أو الشّتم والسّب، وهو عنف لفظي بامتياز، أو عن طريق الإيماءات والحركات ورفع الصوت والصرّاخ..الخ.

وقد توصلت معظم الدّراسات التي اهتمت بالعنف اللغوي واللفظي إلى نتائج مفادها أنّه يترك أثاراً أكثر عمقاَ، وصدمات نفسية حادّة بالنّسبة للضحايا، عكس العنف المادي كالضرب مثلاً، حيث إنّ وقعه في النفس قويّ وأضراره وخيمة.

هذا، وقد بيّنت مثل هذه الدّراسات أنّ كثيراً من المصابين بالأمراض النّفسية، كانوا قد تعرّضوا لهذا الشّكل من العنف، فانجرّ إحباطات وأزمات النّفسية، والاغتراب لدى الضحايا، بالإضافة إلى النّزعة العدوانية.

2– مجالات انتشار العنف اللغوي اللفظي:

تعتبر اللغة أداةً متميزة من أدوات الاتصال والتّفاعل، إلاّ أنّ الكيفيات التي تستخدم بها، يجعلها من الوسائل الهتّاكة لكينونة العديد من الأفراد، بل وتعدّ سلاحاً يلجأ إليه العديد من الأفراد لتعنيف وإذلال الآخرين.ونجد من صور العنف اللغوي اللفظي، تلك العبارات الحاملة لشحنات الأذى والكراهية، والغش والحقد والاحتقار، وغيرها من المظاهر العدائية.

ولا يقتصر هذا الشكل من العنف على فئة اجتماعية دون أخرى، بل إنّه يمسّ كل الفئات دون استثناء،كما لا يقتصر على سن أو جنس معين، فهو يمسّ كلا الجنسين، وكل الفئات العمرية، وهذا حسب الوضعية التي تحتلها في النّسق الاجتماعي، وما يتمتع به الفرد العنيف (Le violent) من قوّة ومكانة أو نفوذ.

ويبرز مشكل العنف في كلّ المجالات الحياتية، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، مجال الأسرة، حيث نجد أنّ بعض الأولياء يمارسون العنف اللفظي مع أبنائهم، ويتجلى ذلك في رصيد المفردات اللغوية العنيفة التي يتوجهون بها إلى الأبناء في بعض الحالات، وذلك بقصد التّقليل من شأنهم، وتذكيرهم بأنّهم لازالوا خاضعين لسلطتهم، وخاصّة في مجتمعاتنا العربية الأبوية – (Le patriarcat)، فكثيرا ما يتفوّه الأولياء تجاه الأبناء أو الكبار تجاه الصغار، أو الزوج تجاه الزّوجة، بالعبارات التالية: "بنت الحرام"، "لقيط"، "حمار"، "كلب"، وغيرها من العبارات العنيفة.

كما تلاحظ مثل هذه السلوكات اللغوية العنيفة، على خلاف ما يمكن أن نتصوّر، الظّاهرة في المؤسسات التّعليمية، إذ كثيرا ما يتوجّه المعلّمون إلى المتعلّمين بكلام فيه عنف شديد، وهذه الظاهرة ليست بجديدة على المجتمعات الإنسانية، والتي تجسّد احتقار المتعلّم من طرف المعلّم، وقد تفطن لها العديد من كبار المربّين الغربيين من أمثال: رابلي (Rabelais) في كتابه (Les Essais)، وعند المسلمين نجد على سبيل المثال ابن خلدون في كتابه (المقدمة) ، وابن مسكويه في كتابه (الهوامل والشوامل)، وابن سينا في كتابه (السياسة)، وغيرهم من العلماء، وهذا للتأكيد على أنّ هذه الظّاهرة قديمة قدم الإنسان، وأنّ الاهتمام بها ومحاولة معالجتها قد ظهرا عند العديد من العلماء.

ومن المنظور السّيكولوجي، ينظر إلى الفاعل، أي الذّي يلجأ إلى العنف اللغوي اللفظي، على أنّه يسعى من وراء مثل هذا الفعل العمل على "التفريغ" أو "التنفيس"، والسّعي إلى تبيان أنّه مسيطر ومتحكم في الأمور. أما في المجال اللساني، فإنّه «تبين العديد من الدّراسات اللسانية أنّ ظاهرة العنف اللفظي، المتمثلة أساساً في قول الكلام البذيء، والسّباب، والشتم، قاسم مشترك بين كل اللغات الإنسانية، فقد طورت كل اللغات على مرّ العصور حقولاً لغوية للكلام البذيء، مثلما طورت كل اللغات قواعد ومفردات للكلام المهذب، وما يلفتُ نظر الدارس لهذه الأمور، هو

تمحور رجل الكلام غير المهذب في كل اللغات حول الجنس، بما فيه من تحقير للآخر واستلاب لقدرته وإرجاعه لدرجة الحيوان أو حتى الجماد».[8]

ويتساءل البعض "لماذا يقدم بعض الرّجال أكثر من النساء ، والشّباب أكثر من الكهول على قول الكلام البذيء، وسب الجلالة والتّفوه بالألفاظ النابية"؟ ترى بعضهم خاصة من المراهقين يتفوهون بالكلام البذيء، وكأنّهم يبرهنون على أنّهم أصبحوا في مصاف الرّجال، وودعوا الطّفولة البريئة، وترى آخرين يروّحون على النّفس بمثل هذه الأقوال، ويرددون بقولها، ضغط اليوم أو اللحظة.[9]

تختلف أشكال العنف اللغوي اللفظي باختلاف أصحابها، ورأسمالهم الثّقافي، والمكانة التّي يحتلونها، ويختلف من فئة اجتماعية إلى أخرى حيث نجد مثلاً، أنّ مظاهر العنف اللغوي اللفظي عند المثقف غير تلك التي نجده عند السّياسي، أو الرياضي..الخ.، فالعنف اللفظي الذي يلجأ إليه الكاتب من خلال رسالة موجّهة إلى شخص ما أو فئة معينة لا يحمل بالضرورة كلامًا بذيئًا كما قد يكون الحال بالنسبة لشخص عادي.

يُعتمد العنف اللفظي اللغوي كذلك في النكت أو التنكيت خاصة في مجال السّياسة، والتّي ينتجها المجتمع يسعى من ورائها، إمّا إلى الاستهزاء أو إذلال شخصية سياسية ما، ويمكن أن نحيل في ذلك، على سبيل المثال، على ما كان يقال من نكت في حق الرّئيس الجزائري الرّاحل الشاذلي بن جديد، والمقارنة التّي كانت تقام بينه، وبين الرئيس الراحل هواري بومدين.

هذا، ونشير كذلك إلى انتشار العنف اللغوي اللفظي في أوساط المراهقين، والذّي يدور في معظم الحالات حول الجنس، وهي المسألة التي حاول تفسيرها العالم "فرويد" (Freud) وإرجاعها إلى الحرمان الجنسي الذّي تعاني منه هذه الفئة.

لقد تطرّق الدّارسون إلى قضية العنف اللغوي اللفظي في محاولة لفهم أبعاده والوقوف على دواعي انتشاره بين مختلف الأوساط الاجتماعية، وعبر كل اللغات

الإنسانية، ولقد عُرِف العالم جان جاك لوسيركل الفرنسي(Jean-Jacques Lecercle) باهتمامه بهذا المجال، ومن خلال الدّراسة النّفيسة التي قام بها على وجه الخصوص، والتّي ترجمت إلى العديد من اللغات، وقد خصّص لها كتابه بعنوان: "عنف اللّغة"، الذي اعتمدناه مرجعاً أساسيّاً في هذا البحث.

وقد تضمّنت مقدمة كتاب "عنف اللّغة" مجموعة من التساؤلات حول علاقة اللغة بالعنف اللفظي وعلاقة هذا العنف باللغة التي تنقله، وكانت على النحو الآتي، «عندما يقوم شخص ما باستعمال اللّغة، من يكون المتكلم ؟ هل هو الشّخص بذاته أم أن اللّغة هي التي تتكلم بكلام آخر؟، هل يكون الشّخص المتكلم مسيطراً سيطرة تامة على "الأداة" التّي يستعملها وهي اللغة؟، بحيث أنّه يفعل بها ما يريد، وفق شروطه الخاصة، ويشكلها وفق تصوراته المسبقة، أم أن اللّغة تلعب دورا أساسيًا في عملية التّعبير، بحيث تفرض شروطها وهي "متكلماً" أو لاعباً أساسيا في العملية؟».[10] ، وتثير كلّ هذه التساولات جوانب الفكرة المحورية التي عالجها الكتاب.

ويقول الباحث "ناصر إبراهيم" تعليقاً على مقدمة هذا الكتاب أنّ الكتابة "الكتابة حسب لوسيركل هي: «مشروع ينطوي على أخطار، وهي مشحونة بدفعات من الطاقة النفسية والعاطفية، لأنّها تنطوي على علاقة إنتهاكية، بل حتى سفاحيه بين الكاتب ولغته الأم ، وبالتالي ، فإنّ اللغة ليست أداة حيادية، بل هي مجموعة من الكلمات المشحونة بقوة الرّغبات والأحقاد والحب ومشاعر الذّنب، وتكون نتيجة ذلك صياغة أخرى لتناقضات المركزي».[11]

وممّا يؤكد ما ذهب إليه "ناصر إبراهيم"، ما يراه العالم الروسي "ميخائيل باختين" (Mikhaïl Bakhtine)، إذ يقول: «إن اللّغة ليست شيئا ثابتا ومستمرا، بل هي دائمة التّطور والتّشكل، حيث تتأثر بالتّراث السّائد حولها وتؤثر فيه باستمرار، كما أن اللّغة لا يمكن فهمها إلا من خلال مفهوم "الحوار"، حيث أنّ "الكلام" الذّي أتفوه به هو دائماً نابعا من كلام سابق أنفعل له و/ أو من توقعي لكلام محتمل سيليه».[12]

ويضيف "لوسيركل": «لا يمكن فهم كلام ما منزوعاً عن سياقه، ومن الملابسات التي تحيط به، فأنا عندما أقول لشخص ما: "أعطني قطعة الجبنة هذه"، "مثلاً" فإنّ اللهجة التّي أتكلم بها تحدد كيف أنظر أنا المتكلم إلى المخاطب، وكيف أنظر إلى نفسي، وكيف أنظر إلى قطعة الجبنة، وكيف أنظر إلى الموقف ككل».[13]ويتضّح من هذا أنّ اللغة بالفعل ليست حيادية، وليست كذلك بالجامدة أو الثابتة، بل هي طرف أساسي في العملية الاتصالية، ومن خلالها يمكن الوقوف على طبيعة ما يترتب على هذه العملية من نتائج.

وعلاوة على ذلك، فإنّ كيفية النّطق بالألفاظ أو توظيف الصّوت من قِبل المتكلم، عامل من شأنه تحديد فيما إذا كانت اللّغة المستعملة عنيفة أم لا، فإذا كان في حديث المتكلم نوع من التنغيم المرتفع (L'intonation)، فذلك يعني أنّ المتكلم بصدد التعبير عن السّخط والغضب، والتّوبيخ والتّهديد وغيرها، من مظاهر العنف التي تبرز في واقع استعمال اللغة، وترتبط بالطبيعة الحقيقية للغة الإنسانية، وفي المجال يؤكّد "لوسيركل" «أنّ عالمنا هو لغتنا، وأنّ اللّغة ليست ذلك البناء الهندسي المنتظم، الذّي يقيمه عالم اللّغة، بل هي الحياة بكل تناقضاتها وفوضويتها».[14] وتأسيساً على ذلك، نقول إنّ اللّغة هي الحياة بمعناها الواسع والعام، بكلّ ما تحمله من تناقضات اللّغة في تعبيرها عن الواقع الاجتماعي المعيش وترجمته، وهذا فضلاً عن كونها الوسيلة المثلى التي تسمح بالوقوف على طبيعة المجتمع التي يتحدّث بها، وبالكشف عن أغواره الثقافية.

ويضيف صاحب مقدمة كتاب "عنف اللّغة"، قائلاً :«ما يتناوله لوسركل في عنف اللغة، لا يخص لغة بعينها، بل هو يطال كل اللغات، ويطال اللّغة على أنّها نشاط إنساني متجذر في النّفس الإنسانية، يشكلها ويتشكل بها، وقد ينطبق ما ذكره "لوسركل" على اللغات المختلفة بأشكال متفاوتة نوعا أو كماً».[15]، وهو ما يعني أنّه لا يوجد لغة رقيقة غير عنيفة، أوليست لها صلة بالعنف، بل كل اللغات تشترك في

كونها تنطوي على العنف في مستوى الصوت والكلمة والتركيب.كما أنّ الكيفيات والظّروف التي يتمّ فيها استعمال اللّغة، والغايات المراد تحقيقها من خلال ذلك هي التّي تحدّد فيما إذا كانت في اللغة المستعملة عنف.

ومن الأشكال التي تبرز قوة العنف في الاستعمال اللغوي اللفظي نذكر:

2-1 الشتم :

هي كلمة مشتقة من (الشتامة) أي (قبح الوجه)، كأنّ الإنسان الذّي يشتم يراه الناس قبيحاً، وإن كان حسن الوجه، والعكس صحيح أيضاً، فحسن البيان يجعل المرء جميلاً في أعين سامعيه، فهذا الرّسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في وصفه لعمه العبّاس بأنّه (جميل)، ما يبين أنّ جمال الخلقة يمكن أن يصنعه جمال اللّغة، إذ عند استغراب العبّاس (رضي الله عنه) لذاك الوصف، أجابه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه بيان جميل، مما جعله هو جميلاً في عيني الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).[16]

ولقد ساهمت المؤسسات التّنشئوية، الرّسمية منها وغير الرّسمية، كالأسرة، والمدرسة، ووسائل الإعلام، وجماعة الرفاق، وغيرها، في انتشار العديد من مظاهر العنف اللغوي اللفظي حيث أصبحت هذه الظاهرة حاضرة بقوة في جميع الأوساط الاجتماعية.

وإذا عدنا إلى الأسرة الجزائرية، نجد أنّه تقع عليها مسؤولية الترويج للعديد من صور العنف اللفظي ونشرها، «حيث يلجأ الأولياء إلى الاستعمال المفرط للعنف اللفظي، كالشتم، والسباب، واللّعن في تربية أبنائهم، زيادة عن الاستعمال المفرط للعنف المادي، يبقى الضّرب كوسيلة من بين الوسائل التربوية والتأديبية لا القمعية، كما نادى بها كل من "القاسي" و"ابن سحنون" – عكس ما هو موجود في مدارسنا، والتي تحولت إلى حلبات للملاكمة أين يمارس فيها أبشع أنواع العنف ضد المتعلمين، ضف إلى ذلك الإهانة، والذل، والشتم، والكلام الفاحش».[17]

ويوحي هذا الكلام، والذّي هو في الحقيقة تشريح حي ودقيق لعمق الأزمة التي تعيشها المؤسسات التنشئوية، وعلى وجه الخصوص المدرسة، بأنّ الممارسات العنيفة بأنواعها المختلفة أصبحت حقيقة، بل تحوّلت إلى أسلوب تعامل مع الآخر، وبالتحديد العنف اللغوي اللفظي الذي أصبح منتشراً بشكل كبير، إنّه كما يقول "بيار بورديو" (Pierre Bourdieu) "العنف الناعم" الذّي يترك أثارًا نفسية وصدمات قوية لا تمحوها الأيام.

2-2 – البيئة الاجتماعية والعنف اللفظي:

يقول الباحث الدكتور "محمد الحبيب منادي" :«عنف اللّغة قد يكون بسبب عنف البيئة وقسوتها، وعدم رفقها على من فيها، ومنها ما نجده في قول الشاعر الذي – حتى في حال المدح – جاءت ألفاظه قاسية غليظة ممجوجة، كقسوة بيئته أو أشد، وذلك حين قال في مدحه الخليفة:

أنت كالكلب في حفاظك للود ---------- وكالتيس في قراع الخطوب

أنت كالدلو لا عدمناك دلواً ---------- من كبار الدلا كثير الذنوب

ولا شك أن دلالة "الكلب" هنا، غير دلالتها فيما سبق من الشتم، و مع ذلك، ففيها من القسوة ما لا يخفى».[18]

يقترن المدح بالذّم أحياناً في ما يطبعه من عنف وتهكّم، فمن الظواهر المعروفة في الأوساط الاجتماعية في الجزائر، استعمال العنف في اللغة للتعبير عن مشاعر الودّ، والإعجاب والأحاسيس الرقيقة، ومن الأمثلة عن ذلك نذكر:

– قول الزوج لزوجته "بقرتي" بدلاً من حبيبتي.

– الشّباب وهو يعبّر عن إحساسه الجنسي تجاه الفتاة بالقول: "أنتِ بومبة" بمعنى: أنتِ قنبلة".

– هتافات الأنصار تجاه فريقهم الرياضيّ، بقولهم: "اقتلوهم"، بمعنى: فوزوا عليهم ولا تتركوا لهم فرصة.

وتشير هذه الأمثلة إلى ما يتمّ استعماله، في إطار التّفاعل الاجتماعي بين الأفراد، من خطابات تحمل شحنات عنيفة وبالرغم من ذلك فإنّها لا تعبر عن الأذى أوالكراهية والسّعي إلى التّدمير.

2- **3- الوصم (التّجريح)**: الوصم (La stigmatisation)هو شكل من أشكال العنف اللفظي اللغوي، الذّي يلجأ إليه بعض الأفراد لإلحاق الضّرر النّفسي، والمعنوي بالآخرين، من خلال التّسميات المضرة، والتي تسوق للصور الدونية، وتعدّ من الصفات المدمرة للذّات ، والمعبرة عن الأذى والكراهية تجاه الآخر.

ولقد أفضت نتائج بعض الدراسات، وخاصة تلك التي قام بها علماء الاجتماع، وعلى رأسهم كل من فرانك تاننبوم (Frank Tannenbaum)، "هارولد بيكر" (Harold Becker) صاحب كتاب "الهامشيون"، وغيرهم، إلى أن اللّغة العنيفة تحمل العديد من شحنات الوصم والإقصاء الاجتماعي للأفراد، والعمل على عزلهم اجتماعيا من خلال ما سماه العالم الأمريكي روبرت ميرتون (Robert Merton) بالشّهادات الأخلاقية، ويظهر ذلك في استعمال مثل الكلمات الآتية: "كافر"، "إرهابي"، "متطرف"، "إسلاماوي" بالنّسبة للوصم الدّيني. أما في ما يتعلّق باللّغة العنيفة الموجهة ضد المرأة فنجد على سبيل المثال لا الحصر، كلمات مثل: "عاهرة"، و"هجالة"، "بايرة"، باللهجة الجزائرية بالنّسبة للتي لم يسعفها الحظ في الزواج، وغيرها من الصور اللغوية العنيفة، التي يلجأ إليها الفرد الجزائري في بعض المواقف الاجتماعية.

2-4 – العنف اللّغوي اللّفظي وعلاقته بالوصم (التّجريح): يستخدم مصطلح "الوصم" في سوسيولوجيا الانحراف، «للإشارة بطريقة تبادلية مع نظرية رد الفعل الاجتماعي، إلى التّفسير الاجتماعي للانحراف، إنما يتم اعتباره نتيجة لعوامل تتعلق بسيكولوجية الأفراد، وخصائصهم الوراثية».[19]

وتشير "الوصمة" إلى العملية التي تنسب الأخطاء والآثام الدّالة على الانحطاط الخلقي إلى أشخاص في المجتمع، فتصفهم بصفات بغيضة، أو سمات تجلب لهم العار، أو تثير حولهم الشائعات.ولذلك تشير هذه العملية، إلى أكثر من مجرد الفعل الرّسمي من جانب المجتمع، تجاه العضو الذّي أساء التّصرف، أو كشف عن اختلاف ملحوظ عن بقية الأعضاء.[20]

نفهم من وراء هذا، أن "الوصم" هو من التّسميات أو النّعوت التّي يطلقها بعض أفراد المجتمع، على من ارتكب الخطأ، أو لم يلتزم بما تنص عليه المعايير الاجتماعية، مثل الذّي يرتكب جريمة السّرقة، فيطلق عليه وصمة "سارق" voleur، والتّي تبقى تلاحقه مدى الحياة، وتحمل على إقصائه اجتماعيًا، ونفس الشّيء بالنّسبة للفتاة التّي ترتكب الزّنا أو الخطيئة فتوصم بـ"الزانية"، إضافة إلى الإجراءات الاجتماعية الرّدعية التي تتخذ ضدها.

وعليه كلّ ما تقدّم، يمكن تحديد الوصم على أنّه إلحاق النعوت والصّفات الرّذيلة والدّونية بالأفراد، وهذا نتيجة لما فعلوه من سلوك، فمثلاً بدلاً من أن ينادى فلان باسمه الحقيقي، ينادى بـ "يا لص" كونه ارتكب هذه الجريمة أو حاول القيام بها، فهنا تلصق الكثير من النّعوت وأسماء الوصم بالأفراد خاصة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، إذ يتفنن النّاس في استعمالها، كما أنّ البيئة الاجتماعية عندنا لا ترحم، فهي كثيرًا ما تساهم في تعميق السّلوك الانحرافي عند الأفراد ، خاصة الضّعفاء الذّين لا حول ولا قوة لهم.[21]، ويمكن بعد هذا قياس شدّة وقع الوصم على الذي يُمارَس ضدّه.

وبغض النظر عن كون استعمال العنف في صورة الوصم، ينطوي على شحنات من الحقد والكراهية،فإنّه يمثل كذلك شكلاً من أشكال العنف النفسي والرمزي، الذي تحدّث عنه العالم الفرنسي "بيار بورديو" وعرّفه: «هو عبارة عن عنف لطيف وعذب، وغير محسوس، وهو غير مرئي بالنسبة لضحاياه أنفسهم، وهو عنف يمارس

عبر الطّرائق والوسائل الرّمزية الخاصة ....، وعلى وجه الخصوص عبر عملية التّعرف والاعتراف، أو على الحدود القصوى للمشاعر والحميميات».[22]، فهو عنف يستعمل اللّغة أداة للإكراه، وإلحاق الضّرر النّفسي والإيديولوجي، على عكس العنف الظّاهر أو المرئي الذّي يوظف القوة الفيزيقية.

ومن الصّور الوهمية والعنيفة لغة أو عن طريق اللغة، يذكر الدكتور "جمال معتوق" بعض ما يتعلق بالمجتمع الجزائري، والتّي مازالت منتشرة إلى حدّ السّاعة، بل ازدادت تفاقماً وتنوعاً، فيقول : «....ونذكر بالخصوص l'assistance "، "فرخ" وغيرها من الأسماء القبيحة، فهذا سخطاً وعدوانية وانتقاماً من المجتمع ومن أنفسهم، ونفس الشّيء بالنسبة للنساء اللواتي ارتكبن جرائم الشّرف والعفة، فالوصم والنبذ هو مصيرهن، ومصير الأطفال غير الشّرعيين إذ ينادونهم عندنا – أي في الجزائر– بـ "ابن الحرام"، "أبناء لاسيستنس " les enfants de l'assistance، وهذا ما يزيد في إقبالهن أو العودة إلى الانحراف من جديد.» [23]

ويسعنا القول في هذا المجال إنّ العنف اللغوي واللفظي، هو من الأشكال التّي تلحق أكبر قدر من الضّرر ضد المتعرضين له، أو ضحاياه، كما أنّه لا يقتصر، كما أسلفنا الذكر، على فئة اجتماعية بعينها، بل الكلّ يمارس هذا العنف أو يتعرّض له أو هو مهدّد بأن يتعرّض له، وبالتالي يمكن القول إنّ القاموس اللغوي العنيف في تطور مستمر، على أساس تفنّن الأفراد في إنتاج الخطاب التسلطي والقهري.

5 – خاتمة:

بعد هذا العرض لأهم مميّزات العنف اللغوي اللفظي وأبعاده الاجتماعية، نصل إلى نتيجة مفادها أنّه يمثل ظّاهرة مرضية تشكل هاجساً يهدّد المجتمعات الإنسانية عامة، ولا يقتصر على مجتمع دون آخر، كما أنّ للخصوصية الثّقافية لكل مجتمع علاقة بمدى إنتاج صور الوصم العنيفة التي تعبر عنها اللّغة وانتشارها.

هذا، وقد تبيّن لنا كذلك أنّ اللغة ليست بالأداة الاتصالية الحيادية، بل تنطوي في ذاتها على شحنات العنف، وتساهم في نشر الصّور الرمزية للعنف اللغوي اللفظي، وهذا علاوة على كيفية توظيفها من قِبل الفرد، من حيثُ هو المسؤول بالدّرجة الأولى على توزيع صور العنف المختلفة. ويصعب الحدّ من هذه المشكلة إلا إذا ما اعتُمدت تقنية الطّرائق التّربوية، والتّنشيطية، وتفعيل الضّبط والأدوات المانعة لانتشار هذا النّوع من العنف،وذلك عن طريق سنّ قوانين ردعية من شأنها منع استعماله في وسائل الاتصال الاجتماعية، وعبر مؤسسات التنشئة الرّسمية، ومنها المدرسة على وجه الخصوص.

الهوامش

[1] - عبد الله المجيدل وعلي اسعد وطفة ، دراسات في سوسيولوجيا التربية ، دار الإعصار العلمي للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، 2014 ، ص 55.

[2] – أحمد علي حبيب: علم النفس الاجتماعي، طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2007، ص 146.

[3] – جمال الألوسي وأميمة علي خان: علم النفس الطفولة والمراهقة ، مطبعة جامعية بغداد ، العراق، ط 38، 1982، ص 123 .

[4] – ابن منظور: لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، المجلد 9، ط41 ، 2001، ص257

[5] – المصدر نفسه، ص 257.

[6] – جميل صليب: المعجم الفلسفي، ج 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص112.

[7] – أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1986، ص153.

[8] – سعيدة بوهلال، العنف اللفظي جريدة الصباح التونسية ، يومية سياسية جامعة ، نشر في 2OO9/O2/15.

[9] – المرجع نفسه.

[10] – جان جاك لوسركال: عنف اللغة، ترجمة د. محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، المعهد العالي العربي للترجمة، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، 2005، ص 43.

[11] – ناصر إبراهيم : "عنف اللغة : أنت كاير".....أنت إرهابي""أنت امرأة" جريدة الأيام، يومية سياسية مستقلة، 2019/07/08.

[12] – جان جاك لوسركال ، عنف اللغة، ص 15.

[13] – المرجع نفسه، ص 15.

[14] – المرجع نفسه، ص24.

[15] – المرجع نفسه، ص 24.

[16] – محمد الحبيب منادي:"عنف اللغة ولغة العنف" : بحث في الأصول وتصحيح للمفاهيم "مجلة ميلاف للبحوث والدراسات، العدد الثالث ، جوان 2016، ص 37.

[17] – معتوق جمال: صفحات مشرقة من الفكر التربوي عند المسلمين، الكتاب الأول، دار الإمام مالك للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص32.

[18] – محمد الحبيب منادي:"عنف اللغة ولغة العنف" : بحث في الأصول وتصحيح للمفاهيم، ص 38

[19] – محمود أبو زيد: المعجم في علم الإجرام والاجتماع القانوني والعقاب، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص 395.

[20] – محمود أبو زيد : المصدر نفسه، ص 395.

[21] – معتوق جمال: مدخل إلى علم الاجتماع الجنائي ، أهم النظريات المفسرة للجريمة والانحراف، الجزء الأول ، دار بن مرابط للنشر والطباعة، الجزائر ، 2008، ص 260.

[22] – المرجع نفسه، ص 260-261.

[23] – المرجع نفسه، ص 261.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد 9، ط41، 2001.
2. أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1986
3. أحمد علي حبيب: علم النفس الاجتماعي، طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2007.
4. جان جاك لوسركال: عنف اللغة، ترجمة د. محمد بدوي ، المنظمة العربية للترجمة ، المعهد العالي العربي للترجمة ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، لبنان ، 2005 ص 43.

5. جمال الألوسي وأميمة علي خان، علم النفس الطفولة والمراهقة ، مطبعة جامعية بغداد ، العراق، ط 38، 1982.

6. جميل صليب، المعجم الفلسفي، ج 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

7. سعيدة بوهلال، العنف اللفظي جريدة الصباح التونسية ، يومية سياسية جامعة ، نشر في 2OO9/O2/15 .

8. عبد الله المجيدل و علي اسعد وطفة ، دراسات في سوسيولوجيا التربية ، دار الإعصار العلمي للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، 2014 .

9. محمد الحبيب منادي:"عنف اللغة ولغة العنف : بحث في الأصول وتصحيح للمفاهيم "مجلة ميلاف للبحوث والدراسات، العدد الثالث ، جوان 2016.

10. محمود أبو زيد : المعجم في علم الإجرام والاجتماع القانوني والعقاب ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة 2003.

11. معتوق جمال، صفحات مشرقة من الفكر التربوي عند المسلمين، الكتاب الأول، دار الإمام مالك للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004.

12. معتوق جمال ، مدخل إلى علم الاجتماع الجنائي ، أهم النظريات المفسرة للجريمة والانحراف، الجزء الأول ، دار بن مرابط للنشر والطباعة، الجزائر ، 2008.

13. ناصر إبراهيم : "عنف اللغة : إنت كاير".....أنت إرهابي""أنت امرأة" جريدة الأيام، يومية سياسية مستقلة، 2019/07/08.